الخاتمة

فـي كتابـه الرائع بعنوان **قرَّاء ضـد المألوف** Readers against the Grain يرثي تشـارلز لامب قائلًا:

> **إننـا نقـرأ لنقـول إننـا قـد قرأنـا؛ لا يمكـن لأي صـورة من صور القـراءة أن تواكـب الكتابة فـي هـذا العصـر، ولكننـا نركض ونلهـث وراءها بأقصى مـا يمكننا من سـرعة... هل يجب علينا تخزينها ومراجعتها بهذا المعدل المُمْرِض إلى الأبد؟ ألن نقرأ ثانية أبدًا من أجل المتعة، لا لمجرد إعطاء الأحكام، أو النقد، أو الحديث عليها وعنها؟ وداعًا للسرور القديم الصـادق الـذي كنـا نحصل عليه من قراءة الكتب غير المعاصرة تمامًا؛ قبل أن تحدق بنا علامات مرض أشكال البدع الحديثة التي لا نهاية لها، وداعًا للقراءة من أجل القراءة!**

مـا يعنيـه لامب بعبـارة «القراءة من أجل القراءة» هو القـراءة المتأنية كما وصفتها في القـراءة المتأنيـة في عصر السـرعة: وتلك ممارسـة متبعة بحرص، من أجـل المتعة والفهم الخاص. وفـي فصلي بعنوان (قـراءة المقالات) لفتُّ الانتباه إلى عمـل لامب اللاذع أحيانًا، والمريـح أحيانًـا بصـورة غريبـة، الذي تضم تحفه الأدبيـة الصغيرة (الصيـن القديمة Old China)، والعمـل الـذي يسـيل اللعـاب (حتى بالنسـبة إلـى النباتيين أمثالـي) بعنوان خطبة على خنزير مشـوي Dissertation upon Roast Pig. وهو أيضًا ناقد موثوق يعتمد عليه بصورة مدهشـة؛ سـبق نزعاتنـا الحالية في القراءة بعدة قـرون. وأكثر ما تنطبـق عليه كلمات لامب

obeikan.com

الحزينة، المكتوبة في عام 1825م، هو عصرنا الحالي أكثر من أي وقت مضى. وفي عصرنا المعلوماتي المنشغل المتعدد، نجد أنفسنا حقيقة مبتلين بوباء متعدد الألوان لـ(البدع الحديثة التي لا نهاية لها)؛ أشياء لنجاريها ونعلِّق عليها. وعوضًا عن القراءة (من أجل المتعة)، وهو مثل لامب الأعلى، فإننا نقرأ لنتمكن من معرفة ما نقول. إننا ننقر على لوحة المفاتيح، ونثرثر. إن رواية غاري شتينغارت المسلية بعنوان قصة حب حقيقية بمنتهى الحزن Super Sad True Love Story تجري أحداثها في مستقبل قريب حيث يحتقر الناس، ولاسيما الشباب منهم، القراءة كليًّا، إنهم يعاينون تدفقات ضخمة من القيل والقال على أجهزتهم المحمولة؛ ولكنهم لا يقرؤون، وفي المقررات الجامعية يعاينون (نصوصًا كلاسيكية)، عندما يجب عليهم ذلك، من أجل الحصول على المعلومة. إن عالم شتينغارت المرير قريب جدًّا من واقعنا الحالي. يبدو أن ما يدعوه لامب (القراءة من أجل القراءة) منسيٌّ تمامًا هنا. وعوضًا عن ذلك فإننا نحصد نتفًا من المعرفة، ونجهد العوالق اللفظية بفكوكنا الإلكترونية.

وفي نهاية المطاف، نصاب بالإرهاق من مثل هذا النشاط المقلق غير المربح؛ فنحن نرغب في شيء أكثر من ذلك؛ ألا وهو القراءة المتأنية. إن التقرب من الكتاب- الحصول على حميمية مجزية مع المؤلف- هو أمر يمكن تعلمه؛ ولكن بالممارسة فقط؛ كما حاججتُ في هذا الكتاب.

ويشير ويلارد سبيغلمان Willard Spiegelman إلى أن «القراء يبدؤون وهم يافعون؛ وهم جاهلون بسعادة لماذا قد بدؤوا هذا الهوس». وقد وصف براوست أيام الطفولة التي تمضي برمتها مع الكتب بأنها (متعة الآلهة)، ويتذكر رواية ديفد كوبرفيلد لديكنز: «في إحدى أمسيات الصيف، عندما كان الأطفال يلعبون، وأنا أجلس في سريري أقرأ، كما لو كان إلى الأبد». قارن بما ورد عند ريتشارد رايت عن قراءة مرحلة الشباب: «لقد ذقت طعم ما كان حياة بالنسبة إليَّ، وسأحصل على المزيد منها، بصورة أو بأخرى، بطريقة أو بأخرى». وقد نجا زورا نيل هيرستون Zora Neale Hurston من حياة بلدة صغيرة بقراءة بعض أساطير الاسكندافيين: «كانت روحي مع الآلهة وجسمي في القرية... رغبت بالابتعاد عن القذارة،

وتمديد أطرافي بصراع جبار نوعًا ما». فكلما قرأنا بشغف، بغض النظر عن عمرنا، نستعيد أحلام الشباب وعواطفهم، وتلك سرمدية دائمة.

ليس ثمة ما يمكن أن أنهي به أفضل من واحد من أعظم القراء في كل العصور؛ فيرجينا وولف. ففي مقالتها الخالدة (كيف يجب قراءة كتاب) How Should One Read a Book?)، تطالب بممارسة القراءة الانعزالية، الممتعة الحريصة. ولكي نقرأ كما تخبرنا وولف، يجب الهرب من (السلطات المكتسبة بالفرو الكثيف) التي تخبرنا معنى الكتب، فتختصر الكتاب برمته إلى مجرد درس، أو شعار أو محاضرة. أدر ظهرك لمدرس المدرسة الكئيب، هذا ما تنصح به، وحاول التواصل مع المؤلف مباشرة، «لا تُملِ رؤيتك على المؤلف؛ حاول أن تتقمصه تمامًا»، هذا ما تنادي به، «حاول أن تكون صديقه وشريكه». إن مثل ذلك الإخلاص سيكافأ بومضة من الشخصية التي تشع في كل لحظة، ومن كل شق مشع صغير من الكتاب الذي تقرؤه. «وإذا ما فتحت عقلك إلى أقصى درجة ممكنة، عندها ستضعك العلامات والتلميحات من كل درجات البراعة غير المدركة حسيًّا، ومن التواءات الجمل الأولى ولفتاتها، في حضرة إنسان لا يشبه أي إنسان آخر».

يجب على كل قارئ صادق أن يتذكر كلمات وولف الأخيرة في (كيف يجب قراءة كتاب؟) ويجعلها إعلانه الفخور للاستقلال؛ إذ لم يقدم أحدٌ قط مدحًا أعدل وأسمى للقراءة منها. وتسأل وولف:

> **أليس هناك بعض الحرف التي نمارسها لأنها جيدة بطبيعتها؛ وبعض أشكال المتع الممتعة بذاتها بصورة نهائية؟ أوَليست هذه من بينها؟ لقد حلمت، أحيانًا على الأقل، أنه عندما يطل يوم القيامة، ويتقدم الفاتحون، والمحامون، والسَّاسة ليتلقوا مكافآتهم؛ تيجانهم، وأكاليلهم من الغار، وأسماءهم المحفورة بصورة لا يمكن إزالتها على رخام لا يفنى، سيلتفت الجبَّار إلى بطرس ويقول، وليس من دون درجة صغيرة من الحسد عندما يرانا قادمين متأبطين كتبنا: «انظروا، لا يحتاج هؤلاء إلى مكافأة. لا نملك ما نعطيهم هنا. لقد أحبوا القراءة».**

تواسينا وولف بأهم درس على الإطلاق: لا تشعر بالذنب حيال القراءة (تعترف موريين كوريغان في عنوانها الممتع: اتركني وحيدًا: إنني أقرأ Leave Me Alone: I'm Reading، بقولها: «عندما أكون في صحبة الآخرين- حتى من هم أغلى وأقرب- تكون هناك لحظة أفضل فيها قراءة كتاب»؛ ستوافقها وولف الرأي). وفي تلاعب رفيع بالألفاظ حول فكرة كتاب الحساب الذي يسجل فيه الله أعمالنا الخيرة والسيئة ويحتفظ به، تقترح وولف أن القراءة تساعدنا على الاحتفاظ بما في الكتاب نفسه بأنفسنا. إننا نتمتع بمكافأتنا الآن؛ ونحن نحلق فوق تلك الصفحة المضاءة حيث نعرف أنفسنا بصدق أكثر وبغرابة أكبر (بعبارة والاس ستيفنز). إننا أكثر بطولة في قراءتنا من أكثر الرجال والنساء شهرة. «ومع ذلك، من ذاك الذي يقرأ ليحقق نهاية، بغض النظر عن مدى الرغبة فيها؟»، تسأل وولف، وتنهض للدفاع عن القراءة بكل كمالها. إن القراءة المتأنية لا تسأل ولا تَعِدُ بأي شيء دنيوي؛ ومع ذلك، ينتمي القراء الملتزمون بعمق أكبر للعالم مقارنة بالمدافعين عن قضايا جوهرية، والفاتحين العظماء والسَّاسة، الذين قد يبدون لنا، وكتبنا بأمان بين أيدينا، مجرد مشاكسين للإنسانية.

حنَّ إيمرسن (إلى الكتب التي تحتل مكانة الآباء والمحبين والتجارب العاطفية في حياتنا)، ولاحظ كافكا في رسالة لصديقه أوسكار بولاك أن «بعض الكتب تبدو مثل المفتاح لغرف غير مألوفة في قلعة المرء». فعندما نقرأ، نريد كتابًا يحل عقدتنا، أو حتى يفتح عقلنا على مصراعيه. وفي القراءة، كما يقترح هارولد بلووم، نبحث عن شيء أكثر جوهرية من أنفسنا؛ تجربة جديدة، انفصال جذري عما نعرفه حق المعرفة. إن هذا الأمر الجديد يجد مكانه فينا، ويجعلنا ننهض لمعانقته. يصبح جزءًا منا؛ شيئًا يمكننا دائمًا العودة إليه بالفعل البسيط المتمثل بالتقاط الكتاب مرة ثانية. واليوم، وأكثر من أي وقت مضى، نجد أنفسنا محبطين بالوعود الضحلة للتقنية الرقمية، وهي تعرض علينا طرائق للتواصل أكثر سرعة، وعبقرية، وأقل إرضاءً. وعوضًا عن مواكبة آخر التقنيات، يجب أن نتراجع قليلًا ونفكر، مثل العديدين الآخرين، بما تتغنى به وولف؛ ألا وهو مكافآت القراءة المتأنية، إذ قد يمثل الاستغراق في كتاب الطريقة الأكثر صدقًا للعثور على ما نحتاجه.